التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنـــــكولن

هدية الأعراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سـيرة هذا العصامى العظيم ... ...

– ٢٨ –

وكان على الرئيس ورجال حكومته بعد قرار التحرير أن يبذلوا غاية جهدهم ليضعوا حداً لتلك الحرب ، فان انتصار أهل الجنوب معناه القضاء على كل شىء، فبه تصبح الحرية مجرد أمنية وتصير الوحدة ضرباً من الوهم ...

ولقد انقضت تلك السنة الثانية للحرب والجنوبيون أرجح كفة ، ففيها أرغم ماكيلان كما رأينا على التراجع وكان من رتشمند عاصمة الجنوب على بضعة أميال ، وفيها حلت الهزيمة بالقائد بوب وهو يدافع عن طريق العاصمة الشمالية ، وكذلك انتصر الجنوبيون فى الميادين الغربية ؛ ولقد كان مرد تلك الانتصارات إلى كفاية قوادهم وحسن نظام جنودهم ...

وفى نهاية تلك السنة حل محل ماكيلان فى قيادة الجيش المرابط على نهر بوتوماك ، فى طريق العاصمة ، قائد آخر هو بيرنشيد ؛ ولقد برهن هـذا القائد الجديد على كفايته فى بعض الأعمال الحربية من قبل ، ولذلك اتجهت الأنظار إليه فى مركزه الجديد ، وراح أهل الشمال يعلقون الآمال على تغيير القيادة ، أن كان قد ألقى فى روعهم أن ما حل بهم من الهزائم فيما سلف إنما يرجع إلى سوء تدبير ماكيلان ...

ولكن فى الجيش عدد كبير من الجند قد آلمهم أن يفارقهم قائدهم أو أن يحال بينهم وبينه على هذا النحو ، لذلك لم يحسنوا لقاء القائد الجديد أو لم يشعروا تحت رايته بما كانوا يشعرون تحت راية ماكيلان من حماسة

وزحف القائد الجديد على رأس جيش ليحتل فردريكسبرج على الضفة الأخرى للنهر ، حيث كان يرابط لى قائد الجنوبيين العظيم؛ ووقف القائد الشمالى تجاه خصمه يفصل بينهما نهر بوتوماك، وقف ينتظر أن توافيه هناك تلك المعابر المتنقلة التى لا بد له منها ليعبر النهر ولكن المعابر وصلته متأخرة فاستطاع خصمه القوى أن يحصن المرتفعات حول المكان ، فلما أخـذ يعبر النهر هو وجنوده انصبت عليهم النيران الحامية من كل صوب ، ونظر القائد فاذا كثير من جنده حوله صرعى لا يقل قتلاهم عن الجرحى، فكان لا بد أن يتراجع وكانت هزيمة جديدة تضاف إلى سلسلة الهزائم فى ذلك العام المشئوم ...

وحمل الجرحى إلى وشنجطون فضاقت بهم المستشفيات حتى لقد حول عدد كبير من الكنائس وغيرها من الأبنية إلى أمكنة للجرحى ، وطافت النذر بالمدينـة ، وانعقدت فى جوها سحب الغم مركومة سوداء ، وأخذت الناس غاشية من الحزن ورجفة من الذعر زاغت لهما الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ...

وأخذت الأنظار تتجه إلى البيت الأبيض وليس فيهـا من معانى الأمل بقدر ما فيها من معانى اللوم والغيظ ، وكأنما كانت ترف من حوله أرواح القتلى فتلبسه كآبة وتشيع فيه ما يكرب النفوس ويؤلم الصدور ...

وأخذ يظهر فى العاصمة حزب جديد ترى أغراضه إلى وضع حد لهذه الحرب بأية وسيلة ، وألفى الرئيس نفسه بين تيارين ، فهنا من ينادون بوضع حد لتلك المحنة ، وهنا من يطلبون إعادة ماكيلان إلى القيادة والسير فى الحرب ولكن فى سرعة وحمية وإقدام ، وغير هؤلاء وهؤلاء قوم يطالبون بتغيير القواد والبحث عن وسائل جديدة تكفل النجاح ، وقوم آخرون خيل إليهم أن الفرصة قد سنحت لهم لاعلان رأيهم فى مسألة تحرير العبيد وكان رأيهم ألا يمس ذلك النظام بما يغير من أصوله ...

وتراءى إلى الناس فضلا عن مزعجات الحرب وشائعاتها أن المجلس التشريعى منقسم بعضه على بعض ، وأن مجلس الوزراء نفسه قد شاع الخلاف بين أعضائه ، ورأى الناس مما يشاع ويذاع أنهم على حافة الكارثة ...

ولكن السنديانة ثابتة على رغم العاصفة لا تنال الريح العاتية شيئاً من ثبوت أصلها وسموق فرعها . أو لم يك فى الغابة منبتها

وكان فيها غذاؤها وريها ؟ . . . أجل ، إن رجلا واحدا هو الذي بقي أمام هذه الشدة رابط الجأش صارم العزم قوي الإيمان، وذلك هو الرجل الذي ألقت عليـه الأقدار عبء قومه دون غيره من الرجال فكانت كأنما اختارته عن بينة مما تبيت وتدبر !

وقف ابراهام عزيزاً لا يهن ، صلبا لا يلين ، بصيرا لا يطيش حلمه ، أميناً لا يخون العهد الذي قطعه على نفسه ، مؤمنا لن يقعد حتى يتم رسالته أو يموت ... وكان موقف الرئيس هذا هو كل ما بقي للقضية من عناصر القوة ... ولكن أية قوة لعمري هي أعظم وأبقى من تلك القوة ؟ ألا إن الظروف التي بالغت في قسوتها على الاتحاد وأنصاره قد عوضتهم من جهة أخرى خير العوض بأن جعلت على رأسهم ذلك الرجل العظيم ...

وليت شعري ماذا كان عسيا أن يحدث من أول الأمر لو لم يكن على رأس البلاد هذا الذي درج من بين أدغالها ؟ بل ماذا كان عسيا أن يحدث في هذه الآونة الدقيقة التي لم يكن للبلاد فيهـا من عاصم إلا الصبر كأعظم ما يكون الصبر ؟ وأي صبر هو أشد وأبلغ من صبر ذلك الطود الراسخ الأشم ؟

وكان من قواد الحرب يومئذ قائد يدعى هوكر وهو في الرتبة الثانية من بعد بيرنسيد ، راح في ذلك الوقت يذيع في الجند أن البلاد أشد ما تكون حاجة إلى دكتاتور يقضي على المنازعات ويرغم الأحزاب أن تحبس هذرها وتدفن خلافها ، وأن الجيش لن يقوده إلى النصر إلا مثل ذلك الرجل الذي يقبض بيد قوية على أزمة الأمور في الدولة وفي الميادين جميعاً ! ... ولقـد ذاعت أفكار هوكر حتى لقد اجترأ ضابط كبير أن يعلن « أن الجيش وعلى رأسه ماك الصغير يستطيع أن يطهر المجلس التشريعي والبيت الأبيض » ... قالها في غير تحرج وإن كان قد ألقي القبض عليه من أجلها ...

وكتب لنكولن إلى هوكر يعاتبه على ما يذيع من أفكار ويحذره العاقبة ويعينه قائداً لجيش بوتوماك ، ومما جاء في خطابه قوله : « إنك لن تستطيع أنت ولا نابليون — إذا قدر له أن يبعث — أن ترجع بخير من جيش هذه هي روحه ... ألا حذار من التعجل ، حذار من التعجل ، ولكن أقدم في نشاط وحمية لا تخبو واكسب لنا النصر »

انتهى العام الثاني لهذه الحرب الهائلة ، وقد لاقى الشماليون ما لاقوا من الهزائم ، ولقي الرئيس من عنت الظروف والرجال ما لاقى ، وحل العام الثالث فلقي الرئيس في مستهله وفود المهنئين بالعام الجديد وباليوم الذي يحل فيه موعد التحرير ، والرئيس مشغول بالحرب وما تتطلب من الرجال والمال ... وها هو ذا يعلق الآمال على ما عسى أن يفعل هوكر ويسأل نفسه ترى ماذا سيكون نصيب القضية في هذا العام

وزار الرئيس ميدان القتال على نهر بوتوماك وقضى هناك أسبوعاً يشرف بنفسه على الجيش ثم عاد إلى العاصمة يمني نفسه بالفوز الذي يضع حداً لهذا القلق الذي تزايد حتى عم الرجال جميعاً

وتحرك جيش بوتوماك في إبريل من تلك السنة ولكنه مالبث أن هزم هزيمة منكرة في شانزلورزفيل ، بعد أن أبلى في المعركة بلاء حسناً أول الأمر ... ثم انقطعت أخبار الجيش عن العاصمة بعد الهزيمة حتى بات الناس في حيرة شديدة ... ورضي لنكولن من الغنيمة بالإياب ، فكان يمني نفسه أن يعود الجيش إلى موقفه الأول فيمنع الطريق إلى العاصمة . . . وأخيراً وصلته رسالة من القيادة أن الجيش قد عاد إلى موضعه ، ولقد تسلمها الرئيس وقرأها فتندت جفونه ، وهو يقول لمن حوله من أصحابه : ماذا عسى أن يقول الشعب ؟ ماذا عسى أن يقول الشعب ؟ واشتد به الغم حتى ما يفلح كلام في الترفيه عنه ...

وركب الرئيس وجماعة من صحبه زورقاً بخارياً إلى حيث يرابط الجيش، فاستطلع واستفهم القائد عن سبب الهزيمة ثم رجع إلى المدينة وقد عقد النية على أمر ... أعلن الرئيس ما يشبه الأحكام العرفيـة ، فحد من حرية الصحافة ومن حرية القول ، وأنذر من يعمل على عرقلة قضية الاتحاد أنه سوف يقدم إلى المحاكم العسكرية لتنظر في أمره ، ولم يعبأ الرئيس فيما فعل بالنقد الشديد يوجه إليه من كل جانب ، فلقد كان مستنداً إلى أحكام الدستور الذي يخول له أن يتخذ عند الخطر ما تتطلبه مصالح البلاد من الأحكام

وحل الورق محل الذهب والفضة في المعاملة إذ كانت الحكومة في حاجة إلى المال لتنفق منه على هذه الحرب الضروس ، ولقـد التجأت من أجلها إلى القرض . . . وعمت الضائقة حتى شملت الناس جميعاً وهكذا ظهر للناس أن هذا العام الجديد أشد هولاً مما سبقه

ولكن هذه الشدة لم تأت بالغرض منها ، فلقد وجد أعداء الحرب وأعداء القضية فيها فرصة لنشر آرائهم ، وسرعان ما تألفت فى نواح كثيرة من البلاد جمعيات سرية تعمل على مقاومة ارئيس وحكومته بكل ما يمكن من الوسائل

وجهر فريق من ذوى الرأى والمكانة بمقاومتهم هذه السياسة ومن هؤلاء وكلندجهام وهو نائب عن أهايو فى المجلس التشريعى..

ولقد أخذ هذا الرجل يعمل فى نشاط وقوة على معارضة كل مشروع فى المجلس يراد به نصرة قضية الحرب ، وفى خارج المجلس راح يطلق لسانه فى الرئيس بكل فاحش من القول فتارة يسميه « الملك لنكولن » وتارة يسخر من ذلك الرجل الذى يريد « أن يخلق الحب بالقوة ، وأن ينمى شعور الأخاء بالحرب » وتطرف ذات مرة فهتف بسقوطه فى مجتمع احتشد فيه عدد من الديمقراطيين الذين أعجبوا به

وكان برنسيد يقود الجيش فى الجهات التى تقع فيها أهايو مدينة ذلك النائب ، ولقد أعلن القائد أن كل شخص يعمل ضد الحرب وقضية الاتحاد جزاؤه أن يقدم إلى محكمة عسكرية لينال عقابه على يديها ... ورد ولندجهام على هذا بخطاب حماسى احتشد الناس فى تلك الولاية لسماعه ودعا الناس إلى رفض هذا القرار وعصيانه ؛ ولم يسع القائد إلا أن يقبض عليه ويسوقه إلى المحكمة العسكرية فقضت بحبسه فى أحد الحصون هناك ...

وارتفعت الأصوات بالاحتجاج على هذا الفعل الذى يتجلى فيه خنق الحرية، فثير لنكولن حكم الحبس بالنفى إلى خارج مناطق النفوذ الشمالى ، وأرسل ذلك النائب المتمرد إلى الولايات الجنوبية فى حراسة نفر من الجند

تكاثفت السحب واكفهر الجو ، ولم يعد يرى الناس بصيصاً من نور الأمل ، فيئسوا من النصر ، وتحرجت الأمور حتى ما يعرف لنكولن نفسه ماذا يفعل ! ... ألا هل من قائد يكسب معركة واحدة فيعيد الرجاء إلى النفوس ، والأمن إلى الخواطر ، والعزم إلى القلوب ؟

إن هزيمة الشماليين فى شانسلورزفيل كانت أقسى ما لاقوا من المحن ، حتى لقد عد مايو وهو الشهر الذى وقعت فيه الهزيمة شر الأيام هولا فى تاريخ تلك الحرب الأهلية الكبيرة ... ولقد كانت خسائر الشماليين فى تلك المعركة بعد ما ذاقوا من الهزائم من قبل ، مما يثبط الهمم ويحل العزائم بينما خرج منها الجنوبيون ولم يخسروا كثيراً اللهم إلا إذا ذكرنا خسارتهم الفادحة بموت قائدهم جاكسون الذى خر صريعاً من رصاصة طائشة أصابته من يد أحد جنوده ...

ها هو ذا الرئيس يفكر ويدور بعينه يتلمس القائد الذى يلمع مساء بعد أن خابت مساعى القواد ... ألا من له بهذا القائد ؟ من له بهذا القائد ؟ ... ولكن أين جرانت ؟ إنه هو الرجل ، وإن قلب الرئيس ليلتفت إليه فى هذه المحنة كأنما يلتفت من إلهام . لقد برهن جرانت على كفايته فى بعض المواقع وإن لم تكن بذات بال ، وحسبه النصر فيها على أى حال ، ولعله لا يتخلف عنه النصر إذا ألقيت على عاتقه القيادة فى غيرها من المعارك الكبيرة ... لقد استطاع أن يستولى على حصنى هنرى ودونلسن على نهر المسيسبى فى فبراير من عام ١٨٦٢ سنة الكروب والهزائم واستطاع كذلك أن يحمل الجنوبيين فى أبريل على التراجع فى معركة حامية حدثت فى أبريل من تلك السنة

وكان الرئيس لا يعرف جرانت معرفة شخصية ، ولكن هاتيك الانتصارات فى أوقات عز فيها النصر تنم عن كفاية ، وتدل على بطولة ، وإن عين الرئيس البصيرة لتستشف من وراء تلك الأخبار الرجل المرجو ... وإذا فليرسل الرئيس إليه وليعطه الراية ولينتظر النصر على يديه

ولكن بعض الرجال يلقى إلى الرئيس من أنباء ذلك الرجل أنه بابنة العنقود مولع حتى ما يفيق منها إلا قليلا ، فاستمع إلى الرئيس وقد هداه قلبه الذى لا يكذبه ودلته بصيرته التى لا تخطئه، استمع إليه يقول لهؤلاء الناس « أرجو أن تدلونى : أى نوع من أنواع الويسكى يشرب ذلك الرجل لأرسل منه دنا لكل قائد من قوادى الآخرين » !

أيقن الرئيس أن سوف تنقشع السحب ويتنفس الناس الصعداء ، فلئن لم يكن لهم إلا تفهم فى رجلهم ، لقد امتدت عيناه البصيرتان إلى القائد الذى يكون فى ميادين القتال مثل إبراهام فى البيت الأبيض ، رشيدا لا يزوغ بصره ، قويا لا يكل عزمه ، ثابتا لا يخف حلمه ، حكيما يعرف ما يأخذ مما يدع ، جريئا مؤمنا يرى الحياة الحقيقية فى أن يموت فى سبيل مبدئه ...

« يتبع »

الخفيف